٨ — قاعدة فى أنه كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من علوم القرآن فى شىء

قال الشاطبيّ : كون الظاهر هو المفهوم العربيّ مجرداً، لا إشكال فيه. لأن المؤالف والمخالف اتفقوا على أنه منزل بلسان عربيّ مبين. وقال سبحانه: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » ثم رد الحكاية عليهم بقوله : « لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ »(١) . وهذا الرد على شرط الجواب فى الجدل . لأنه أجابهم بما يعرفون من القرآن الذى هو بلسانهم . والبشر ، هنا ، حَبْر. وكان نصرانيا. فأسلم . أو سلمان، وقد كان فارسيا فأسلم . أو غيرهما ممن كان لسانه غير عربيّ باتفاق منهم . وقال تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ »(٢) . وقد علم أنهم لم يقولوا شيئا من ذلك. فدل على أنه عندهم عربيّ . وإذا ثبت هذا فقد كانوا فهموا معنى ألفاظه من حيث هو عربيّ فقط ، وإن لم يتفقوا على فهم المراد منه . فلا يشترط فى ظاهره زيادة على الجريان على اللسان العربيّ. فإذاً كل معنى مستنبط من القرآن ، غير جار على اللسان العربيّ، فليس من علوم القرآن فى شئ . لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به . ومن ادعى فيه ذلك فهو فى دعواه مبطل .

ومن أمثلة هذا الفصل ما ادعاه من لا خلاق له من أنه مسمًّى فى القرآن. كبيان بن سمعان حيث زعم أنه المراد بقوله تعالى : «هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ .. »(٣) الآية وهو من الترهات بمكان

(١) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٨] ونصها : هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

مكين ، والسكوت على الجهل كان أولى به من هذا الافتراء البارد . ولو جرى له على اللسان العربى لعده الحمق من جملتهم ، ولكنه كشف عوار نفسه من كل وجه ، عافانا الله ، وحفظ علينا العقل والدين بمنه . وإذا كان (بيانٌ) فى الآية علما له فأى معنى لقوله : «هذا بَيَانٌ للنَّاسِ» كما يقال هذا زيد للناس. ومثله فى الفحش من تسمى بالكِسْف ثم زعم أنه المراد بقوله تعالى «وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً »(١). الآية. فأى معنى يكون للآية على زعمه الفاسد كما تقول : وإن يروا رجلا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وبيان بن سمعان : هذا هو الذى تنسب إليه البيانية من الفرق . وهو، فيما زعم ابن قتيبة، أول من قال بخلق القرآن. والكسف هو أبو منصور الذى تنسب إليه المنصورية.

وحكى بعض العلماء أن عبيدالله الشيعيّ المسمى بالمهدىّ حين ملك أفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره. وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر بالفتح، وكان يقول لهما : أنتما اللذان ذكركما الله فى كتابه . فقال : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ»(٢) قالوا : وقد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى ، فبدل قوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . بقوله : كتامة خير أمة أخرجت للناس .

ومن كان فى عقله لا يقول مثل هذا لأن المتسميَيْن بنصر الله والفتح المذكورين إنما وجدا بعد مائتين من السنين من وفاة رسول الله ﷺ ، فيصير المعنى إذا مت يا محمد، ثم خلق هذان، « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ .. » الآية. فأىّ تناقض وراء هذا الإفك الذى افتراه الشيعىّ . قاتله الله .

ومن أرباب الكلام من ادعى جواز نكاح الرجل منا تسع نسوة حرائر . مستدلا على

---

(١) [٥٢ / الطور / ٤٤] ونصها : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ .

(٢) [١١٠ / النصر / ١ ـ ٣] ونصها: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .

ذلك بقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ... »(١) ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب فى مثنى وثلاث ورباع .

ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالا لأن الله قال : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ »(٢) فلم يحرم شيئا غير لحمه . ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس .

ومنهم من فسر الكرسىّ فى قوله : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ »(٣) بالعلم مستدلين ببيت لا يعرف. وهو :

(ولا بكرسىٍّ علم الله مخلوق) كأنه عندهم ولا بعلْمٍ علمه. وبكرسىٍّ مهموز. والكرسىّ غير مهموز.

ومنهم من فسر غَوَى فى قوله تعالى : « وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ »(٤) . إنه تخم من أكل الشجرة . من قول العرب غَوِىَ الفصيل يَغْوَى غَوًى إذا بشم من شرب اللبن . وهو فاسد لأن غَوِىَ الفصيل فَعِل ، والذى فى القرآن على وزن فَعَل .

ومنهم من قال فى قوله : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ »(٥) أى ألقينا فيها . كأنه عندهم من

---

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٥ / المائدة / ٣] وهذا نصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ...

(٣) [٢ / البقرة / ٢٥٥] ونصها : . . . وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

(٤) [٢٠ / طه / ١٢١] ونصها : فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٧٩] ونصها: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ =

قول الناس : ذرته الريح . وذَرَأَ مهموز ، وذَرَا غير مهموز .

وفى قوله : « وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »(١) ، أى فقيراً إلى رحمته . من الخلة بفتح الخاء . محتجين على ذلك بقول زهير (وإن أتاه خليل يوم مسألة) قال ابن قتيبة : أىُّ فضيلة لإبراهيم فى هذا القول ؟ أما يعلمون أن الناس فقراء إلى الله ؟ وهل « إبراهيم » فى لفظ « خليل الله » إلا كما قيل « موسى كليم الله » و « عيسى روح الله » . ويشهد له الحديث(٢) : « لو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلًا ، إن صاحبكم خليل الله »(٣) .

وهؤلاء من أهل الكلام هم النابذون للمنقولات اتباعاً للرأى . وقد أدّاهم ذلك إلى تحريف كلام الله بما لا يشهد للفظه عربىّ ، ولا لمعناه برهان ، كما رأيت .

وإنما أكثرت من الأمثلة ، وإن كانت من الخروج عن مقصود العربية والمعنى على ما علمت ، لتكون تنبيهاً على ما وراءها مما هو مثلها ، أو قريب منها .

= لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

(١) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

(٢) البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ « سدوا الأبواب إلا باب أبى بكر » :

عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله تعالى عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال « إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر . ولو كنت متخذاً خليلًا غير ربى لاتخذت أبا بكر . ولكن أُخُوَّة الإسلام ومودته . لا يبقينّ فى المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب أبى بكر » .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١٥ ـ باب حدثنا محمد بن عبد الملك ابن أبى الشوارب :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه . ماخلا أبا بكر . فإن له عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة . وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر . ولو كنت متخذاً خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا . ألا وإن صاحبكم خليل الله » .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدم فى المسألة قبلها ، ولكن يشترط فيه شرطان : أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ويجرى على المقاصد العربية . والثانى : أن يكون له شاهد نصًّا أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

فأما الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيًّا . فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق . ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن، ليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه . وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلًا إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدها . فإثبات أحدها تحكّم وتقوّل على القرآن ظاهر . وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم. والأدلة المذكورة ، فى أن القرآن عربىّ ، جارية هنا .

وأما الثانى : فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخر ، أو كان له معارض ، صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن. والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء . وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم إنه الباطن ، لأنهما موفران فيه ؛ بخلاف ما فسر به الباطنية ، فإنه ليس من علم الباطن ، كما أنه ليس من علم الظاهر ، فقد قالوا فى قوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ »[1] أنه الإمام ورث النبىّ علمه . وقالوا فى الجنابة : إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك. ومعنى الطهور هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام . والتيمم الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى أو الإمام . والصيام الإمساك عن كشف السر .

(١) [٢٧ / النمل / ١٦] ونصها : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

والكعبة النبيّ . والباب عليّ . والصفا هو النبيّ . والمروة عليّ . والتلبية إجابة الداعى . والطواف سبعاً هو الطواف بمحمد عليه السلام إلى تمام الأئمة السبعة . والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام . ونار إبراهيم هو غضب نمروذ لا النار الحقيقية . وذبح إسحق هو أخذ العهد عليه . وعصا موسى حجته التى تلقفت شبه السحرة . وانفلاق البحر افتراق علم موسى عليه السلام فيهم . والبحر هو العالم . وتظليل الغمام نصب موسى الإمام لإرشادهم . والمنّ علم نزل من السماء . والسلوى داع من الدعاة . والجراد والقمل والضفادع سؤالات موسى وإلزاماته التى تسلطت عليهم . وتسبيح الجبال رجال شداد فى الدين . والجن الذين ملكهم سليمان باطنية ذلك الزمان . والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا الأعمال الشاقة. إلى سائر ما نقل من خباطهم الذى هو عين الخبال ، وضحكة السامع . نعوذ بالله من الخذلان .

قال القتبي : وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أُشَبِّهُ تفسير الروافض للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر . فإنه قال ذات يوم : ما سمعت بأكذب من بنى تميم . زعموا أن قول القائل :

بيتٌ ، زرارةُ محتبٍ بفِنائه ومجاشع وأبو الفوارس نَهْشَلُ

أنه فى رجل منهم . قيل له : فما تقول أنت فيه ؟ قال : البيت بيت الله ، وزرارة الحج . قيل : فمجاشع ؟ قال : زمزم جشمت بالماء . قيل : فأبو الفوارس ؟ قال: أبو قبيس . قيل : فنهشل ؟ قال : أشده . وصمت ساعة ثم قال : نعم نهشل مصباح الكعبة لأنه طويل أسود فذلك نهشل . انتهى ما حكاه .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

وقد وقعت فى القرآن تفاسير مشكلة يمكن أن تكون من هذا القبيل أو من قبيل الباطن الصحيح. وهى منسوبة لأناس من أهل العلم ، وربما نسب منها إلى السلف الصالح . فمن ذلك فواتح السور نحو : ألم ، والمص ، وحم ، ونحوها . فسرت بأشياء . منها ما يظهر جريانه على مفهوم صحيح ومنها ما ليس كذلك . فينقلون عن ابن عباس أن « ألم » أن ألف الله . ولام جبريل . وميم محمد ﷺ . وهذا ، إن صح فى النقل ، فمشكل . لأن هذا النمط من التصرف لم يثبت فى كلام العرب هكذا مطلقا . وإنما أتى مثله إذا دل عليه الدليل اللفظىّ أو الحالىّ كما قال : (قلت لها قفى فقالت قاف) وقال : (قالوا جميعا كلهم بلى فا) وقال : (لا أريد الشهر إلاأن تا) والقول فى «ألم» ليس هكذا . وأيضاً فلادليل من خارج يدل عليه. إذلو كان له دليل لاقتضت العادة نقله ، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه . ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات. فإن ثبت له دليل يدلّ عليه ، صير إليه . وقد ذهب فريق إلى أن المراد الإشارة إلى حروف الهجاء ، وأن القرآن منزل بجنس هذه الحروف وهى العربية . وهو أقرب من الأول . كما أنه نقل أن هذه الفواتح أسرار لا يعلم تأويلها إلا الله ؛ وهو أظهر الأقوال فهى من قبيل المشابهات . وأشار جماعة إلى أن المراد بها أعدادها . تنبيهاً على مدة هذه الملة . وفى السير ما يدل على هذا المعنى . وهوقول يفتقر إلى أن العرب كانت تعهد فى استعمالها الحروف المقطعة أن تدل بها على أعدادها . وربما لا يوجد مثل هذا ، لها ، البتة . وإنما كان أصله فى اليهود حسبما ذكره أصحاب السير . فأنت ترى هذه الأقوال مشكلة إذا سبرناها بالمسبار المتقدم . وكذلك سائر الأقوال المذكورة فى الفواتح مثلها فى الإشكال وأعظم . ومع إشكالها فقد اتخذها جمع من المنتسبين إلى العلم ، بل إلى الاطلاع والكشف على حقائق الأمور ، حججا فى دعاو ادعوها على القرآن . وربما نسبوا شيئا من ذلك إلى علىّ بن أبى طالب ، وزعموا أنها

أصل العلوم ، ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة . وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئا من ذلك . وهو ، إذا سلم أنه مراد فى تلك الفواتح فى الجملة ، فما الدليل على أنه مراد على كل حال من تركيبها على وجوه ، وضرب بعضها ببعض ، ونسبتها إلى الطبائع الأربع ، وإلى أنها الفاعلة فى الوجود ، وأنها مجمل كل مفصل ، وعنصر كل موجود . ويرتبون فى ذلك ترتيبا جميعه دعاوٍ محالةٌ على الكشف والاطلاع . ودعوى الكشف ليس بدليل فى الشريعة على حال ، كما أنه لا يعد دليلا فى غيرها ، كما سيأتى بحول الله .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

ومن ذلك أنه نقل عن سهل بن عبد الله فى فهم القرآن أشياء مما يعد من باطنه . فقد ذكر عنه أنه قال فى قوله تعالى « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا »[1] أى أضداداً . قال : وأكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء ، الطواعة إلى حظوظها ومنهيها بغير هدى من الله . وهذا يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد ، حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجعلوا لله أنداداً لا صنما ولا شيطاناً ولا النفس ولا كذا . وهذا مشكل الظاهر جداً ، إذ كان مساق الآية ومحصول القرائن فيها يدل على أن الأنداد الأصنام أو غيرها مما كانوا يعبدون ، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم ولا يتخذونها أرباباً. ولكن له وجه جار على الصحة ، وذلك أنه لم يقل إن هذا هو تفسير الآية ، ولكن أتى بما هو ندّ فى الاعتبار الشرعيّ الذى شهد له القرآن من جهتين :

إحداهما: أن الناظر قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجريه له فيما لم تنزل فيه، لأنه يجامعه فى القصد أو يقاربه ، لأن حقيقة الندّ أنه المضاد لندّه ، الجارى على مناقضته. والنفس الأمارة هذا شأنها ، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها ، لاهية أو صادّة عن مراعاة حقوق خالقها . وهذا هو الذى يعنى به الندّ فى نده . لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه. وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى: « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »[2] وهم لم

(١) [٢ / البقرة / ٢٢] ونصها : الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

يعبدوهم من دون الله ولـكنهم ائتمروا بأوامرهم ، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان. فما حرموا عليهم حرموه ، وما أباحوا لهم حللوه ، فقال الله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » وهذا شأن المتبع لهوى نفسه .

والثانية : أن الآية: ، وإن نزلت فى أهل الأصنام ، فإن لأهل الإسلام فيها نظراً بالنسبة إليهم . ألا ترى أن عمر بن الخطاب قال لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا »[1] ؟ وكان هو يعتبر نفسه بها. وإنما أنزلت فى الكفار لقوله: « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كفرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » الآية ولهذا المعنى تقرير فى العموم والخصوص . فإذا كان كذلك ، صح التنزيل بالنسبة إلى النفس الأمارة فى قوله : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا » والله أعلم .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٠] ونصها : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

ومن المنقول عن سهل أيضاً فى قوله تعالى: « وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ »(١) قال: لم يرد معنى الأكل فى الحقيقة وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره ، أى لا تهتم بشىء هو غيرى . قال : فآدم لم يعصم من الهمة والتدبير فلحقه ما لحقه . قال : وكذلك كل من ادعى ما ليس له ، وساكن قلبه ، ناظراً إلى هوى نفسه ، لحقه الترك من الله ، مع ما جبلت عليه نفسه فيه ، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره ، وينصره على عدوه وعليها .

قال : وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة ، لأن البلاء فى الفرع دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ماوسوست به نفسه ، فغلب الهوى والشهوة العلمَ والعقلَ بسابق القدر ، إلى آخر ما تكلم به .

وهذا الذى ادعاه فى الآية خلاف ما ذكره الناس من أن المراد النهى عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله ، وإن كان ذلك منهيًّا عنه أيضاً ، ولكن له وجه يجرى عليه لمن تأول ، فإن النهى إنما وقع عن القرب لا غيره ، ولم يرد النهى عن الأول تصريحاً ، فلا منافاة بين اللفظ وبين ما فسر به .

وأيضاً فلا يصح حمل النهى على نفس القرب مجرداً . إذ لا مناسبة فيه تظهر ، ولأنه لم يقل به أحد ، وإنما النهى عن معنى فى القرب . وهو إما التناول والأكل ، وإما غيره ، وهو شىء ينشأ الأكل عنه ، وذلك مساكنة الهمة ، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل . ولاشك فى أن السكون لغير الله لطلب نفع أو دفع ، منهىّ عنه . فهذا التفسير له وجه ظاهر،

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٥] ونصها : وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

و [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

فكأنه يقول: لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل ، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله ، إذ لو انتهى لكان ساكناً لله وحده . فلما لم يفعل ، وسكن إلى أمرٍ فى الشجرة غرّه به الشيطان ، وذلك الخلد المدعى ، أضاف الله إليه لفظ العصيان ، ثم تاب عليه إنه هو التواب الرحيم . ومن ذلك أنه قال فى قوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . . »(١) الآية ـ باطن البيت قلب محمد ﷺ ، يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد ، واقتدى بهدايته . وهذا التفسير يحتاج إلى بيان . فإن هذا المعنى لا تعرفه العرب . ولا فيه من جهتها وضع مجازىّ مناسب ، ولا يلائمه مساق بحال، فكيف هذا ؟ والعذر عنه أنه لم يقع فيه مايدل على أنه تفسير للقرآن. فزال الإشكال إذًا . وبقى النظر فى هذه الدعوى. ولابد ، إن شاء الله ، من بيانها .

ومنه قوله فى تفسير قول الله تعالى: « يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ »(٢) قال : رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء إذا خلا العبد معها للمعصية. وهو أيضاً من قبيل ماقبله. وإن فرض أنه تفسير فعلى ما مر فى قوله تعالى: « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » .

وقال فى قوله تعالى : « وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى . . . »(٣) الآية ـ أما باطنها فهو القلب ، والجار الجنب النفس الطبيعىّ ، والصاحب بالجنب العقل المقتدى بعمل الشرع ، وابن السبيل الجوارح المطيعة لله عز وجل ، وهو من المواضع المشكلة فى كلامه .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٦] ونصها : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ٥١] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا .

(٣) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا .

ولغيره مثل ذلك أيضاً . وذلك أن الجارى على مفهوم كلام العرب فى هذا الخطاب ما هو الظاهر من أن المراد بالجار ذى القربى وما ذكر معه ما يفهم منه ابتداء . وغير ذلك لا يعرفه العرب. لا مَنْ آمن منهم ولا مَن كفر . والدليل على ذلك أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن بمائله أو يقاربه ، ولو كان عندهم معروفاً لنقل ، لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة، ولا يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ، ولا هم أعرف بالشريعة منهم. ولا ، أيضاً ، ثَمَّ دليل يدل على صحة التفسير . لا من مساق الآية ، فإنه ينافيه . ولا من خارج ، إذ لا دليل عليه كذلك . بل مثل هذا أقرب إلى ما ثبت رده ونفيه عن القرآن، من كلام الباطنية ومن أشبههم .

وقال فى قوله : « صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ »(١) الصرح نفس الطبع ، والممرد الهوى. إذا كان غالباً ستر أنوار الهدى بالترك من الله تعالى العصمة لعبده .

وفى قوله : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »(٢) أى قلوبهم عند إقامتهم على مانهوا عنه ، وقد علموا أنهم مأمورون منهيون ، والبيوت القلوب ، فمنها عامرة بالذكر ، ومنها خراب بالغفلة عن الذكر .

وفى قوله تعالى : « فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »(٣) قال : حياة القلوب بالذكر .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٤٤] ونصها : قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] ونصها : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٠ / الروم / ٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وقال فى قوله تعالى: « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »(١) الآية ـ مثل الله القلب بالبحر، والجوارح بالبر . ومثله أيضاً بالأرض التى تزهى بالنبات . هذا باطنه .

وقد حمل بعضهم قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »(٢) على أن المساجد القلوب ، تمنع بالمعاصى من ذكر الله .

ونقل فى قوله تعالى : « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ »(٣) أن باطن النعلين هو الكونان الدنيا والآخرة، فذكر عن الشبلىّ أن معنى: «اخلع نعليك» اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية .

وعن عطاء « اخلع نعليك » عن الكون ، فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب .

وقال : النعل النفس ، والواد المقدس دين المرء ، أى حان وقت خلوك من نفسك ، والقيام معنا بدينك ، وقيل غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد فى النقل عن السلف .

وهذا كله ، إن صح نقله ، خارج عما تفهمه العرب ، ودعوى مالا دليل عليه فى مراد الله بكلامه .

ولقد قال الصديق(٤) : « أىّ سماء تظلنى ، وأىّ أرض تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم » .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٤١] ونصها : ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(٢) [٢ [البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٢٠ / طه / ١٢] ونصها : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى .

(٤) جاء فى تفسير ابن كثير: وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام: ثنا محمد بن يزيد عن العوّام ابن حوشب عن إبراهيم التيمىّ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . فقال: أىّ سماء تظلنى وأىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم . منقطع اهـ .

وفى الخبر[1]: من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ . وما أشبه ذلك من التحذيرات .

وإنما احتيج إلى هـذا كله لجلالة من نقل عنهم ذلك من الفضلاء ، وربما ألمّ الغزالىّ بشىء منه فى الإحياء وغيره . وهو مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم . فإن الناس، فى أمثال هذه الأشياء ، بين قائلين : منهم من يصدق به ويأخذه على ظاهره ويعتقد أن ذلك هو مراد الله تعالى من كتابه ، وإذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافه ، فربما كذب به أو أشكل عليه . ومنهم من يكذب به على الإطلاق ويرى أنه تقوّل وبهتان ، مثل ما تقدم من تفسير الباطنية ومن حذا حذوهم . وكلا الطريقين فيه ميل عن الإنصاف . ولابد قبل الخوض فى رفع الإشـكال من تقديم أصل مسلّم يتبين به ما جاء من هذا القبيل ، وهى :

« المسألة العاشرة »

فنقول: إن الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الظاهرة للبصائر ، إذا صحت على كمال شروطها ، فهى على ضربين :

أحدهما : ما يكون أصل انفجاره من القرآن ، ويتبعه سائر الموجودات ، فإن الاعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق نورُ البصيرة فيه حجبَ الأكوان من غير توقف ، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل حسبما بينه أهل التحقق بالسلوك .

والثانى : يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئيّها أو كليّها ، ويتبعه الاعتبار فى القرآن .

فإن كان الأول ، فذلك الاعتبار صحيح ، وهو معتبر فى فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يَرِدُ على القلوب على وفق ما نزل له القرآن ، وهو الهداية التامة ، على ما يليق بكل واحد من المـكلفين ، وبحسب التـكاليف وأحوالها ، لا بإطلاق . وإذا كانت كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنىّ قلما يجده إلا من كان

(١) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٩ .

من أهله عملاً به على تقليد أو اجتهاد ، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده ، كما لم يخرجوا فى العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده. بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازى أحكامه . ويلزم من ذلك أن يكون معتدا به ، لجريانه على مجاريه .

والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه ، فإنه كله جار على ما تقضى به العربية ، وما تدل عليه الأدلة الشرعية حسبما تبين قبل .

وإن كان الثانى فالتوقف عن اعتباره فى فهم باطن القرآن لازم ، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع ، لأنه بخلاف الأول، فلايصح إطلاق القول باعتباره فى فهم القرآن ، فنقول : إن تلك الأنظار الباطنة فى الآيات المذكورة إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهى راجعة إلى الاعتبار غير القرآنىّ ، وهو الوجودىّ . ويصح تنزيله على معانى القرآن ، لأنه وجودىّ أيضا ، فهو مشترك من تلك الجهة ، غير خاص فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطالبه المربى ، وهو أمر خاص ، وعلم منفرد بنفسه ، لايختص بهذا الموضع ، فلذلك يوقف على محله . فكون القلب جارا ذا قربى ، والجار الجنب هو النفس الطبيعىّ ، إلى سائر ماذكر ، يصح تنزيله اعتبارياً مطلقاً . فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض فى هذا النمط ، صحيح وسهل جدا عند أربابه غير أنه مُغَرٌّ بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ . وأيضاً، فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى المقصود المخاطب به الخلق ، بل أجراه مجراه ، و سكت عن كونه هو المراد . وإن جاء شىء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الأعتبار القرآنىّ والوجودىّ . وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو ، بعدُ ، فى السلوك سائر على الطريق ، لم يتحقق بمطلوبه . ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم . وللغزالىّ فى مشكاة الأنوار ، وفى كتاب الشكر من الإحياء ، وفى كتاب جواهر القرآن فى الاعتبار القرآنىّ وغيره ، ما يتبين به لهذا الموضع أمثلة . فتأملها هناك والله الموفق .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

وللسنة فى هذا النمط مدخل. فإن كل واحد منهما قابل لذلك الاعتبار المتقدم الصحيح الشواهد ، وقابل أيضا للاعتبار الوجودىّ ، فقد فرضوا نحوه فى قوله عليه السلام « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة »[1] إلى غير ذلك من الأحاديث . ولا فائدة فى التكرار إذا وضح طريق الوصول إلى الحق والصواب .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، عن أبى طلحة . ونصه : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل » .